إلا و«حيفا» بجفني السهد والحُلم
ولا تجلى صباح في مفارحه
إلا و«حيفا» بجنبي السهم والألم[٥٤]

وتحس أنه لا يُنبس بهذا الاسم الحبيب الى نفسه إلا وتستوفز في ذلك الانسان المرهف الحس أصدق العواطف الانسانية وأنبلها. إن مرور الأيام والسنين يعمق حيفا وذكرياتها في نفسه، ويزيدها قربا فهي تنطوي في نفسه انطواء حسن الطفل والصبي والشاب في اهاب حسن الرجل الكهل... كأنه مع تقدم العمر به يقترب من حيفا... انها تحل فيه خلال حياته، فهل ستحل روحه فيها بعد وفاته؟؟

بعد ثلاث وعشرين سنة من قصيدة «حيفا في سواد العيون» نظم قصيدة أخرى بعنوان «حيفا»، تحس فيها بهذا الحلول والقرب:

حيفا وأنت مزاج الروح في رمقي
وعمق جرح الهوى في موجعي الخفق
والضحك، تمسحه الأيام عن شفتي
والليل تطرحه الآلام في طرقي
... عيناي أنت وأنت العمر أجمعه
وأنت عرس السنى في مأملي الخلق
وأنت طلعة فجري نورت سبلي
وأنت غيبة شمسي ألهبت غسقي
يشدني لك شوق لو غمست له
يراع شعري في صوب الحيا الغدق
ورحت بالحب والذكرى أصوره
دمعا على الخد... او حرفا على الورق
لجف حبري... ولم أبلغ قرارة ما
ضمت جوانح صدري من لظى حرقي...![٥٥]

ولا يمكن أن نكتفي بالوقوف على تأثره القرآني في هذه الأبيات الأخيرة، فهي ليست مجرد تأثر بالآية الكريمة ﴿قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾[٥٦].

وانما نحس فيها أيضا ملامح روح شعبية تقوم على تجسيد هذا الوجد الانساني الغامر، بالاضافة الى حقيقة الاحساس الانساني بدفق المشاعر من بحر لا يمكن نضحه.

وبسبب سطوة حيفا وتسلط الوطن على البحيري[٥٧]، فانه يرى في كل ما حوله، وكل ما حوله يذكر بوطنه، حتى تلك الموجة العذراء على ضفاف بردى بذكرياتها العزيزة على نفسه، تذكره بالوطن... وربما ببحر حيفا وأمواجه[٥٨]. وبالاضافة الى ذلك، فاننا نستطيع ان نتلمس درجة هذه السطوة وعمق هذا التسلط عليه من خلال كلمات الاهداء الذي وضعه لهذا الديوان، ففلسطين حبيبته، هي النور الذي تبصر به عيناه، والهواء الذي تتنفسه رئتاه، والدم الذي يجري في عروقه، والخفق الذي يتوالى بنبض قلبه، والنخاع الذي يسقي عظامه.